

الفصل السابع

هل علاقتك بطفلك
صحيحة؟

مع
من أجل الأطفال

obeikandi.com

هل علاقتك بطفلك صحيحة؟

تعتقد كل أم أنها تحب طفلها الجديد حباً لا مزيد عليه. لكن الأمر ليس دائماً بهذه البساطة أو السهولة. فعندما تحمله لأول مرة عقب مولده تظن أن العلاقة الوثيقة بينهما سوف تسمتد مدى الحياة، لا تخبو ولا تهتز أو تنقطع. لكن الواقع قد يكون غير ذلك. وربما تمضي أسابيع، أو شهور، وأحياناً سنوات لكي يتحقق ما ترجو. . وقد لا يتحقق على النحو الذي يجب أن يكون!

إن علاقة الحب الصحيح الوثيق لا تأتي تلقائياً، ولا غريزياً، ولا طبيعياً مثل الميلاد، والنوم، والكلام، والنمو في مراحل العمر المختلفة. من حيث النمو، معروف أن الأم إذا هجرت وليدها أو أهملت في رعايته، فإنه يمرض وقد يموت. وكان الاعتقاد الشائع أن الرابطة بين الأم والطفل تنشأ مع مولده أو بعده بفترة قصيرة. لكن ثبت أن هذه العلاقة أكبر من مجرد عاطفة غريزية ترعاه وتحميه. إنها تحتاج إلى شهور وسنوات لكي تنمو، وتستقر، وتتوثق، وتتركز، وتزدهر.

إن عاطفة التألف وما يترتب عليها من ألفة هي أهم العواطف الاجتماعية وأحقها بالترسيخ والرعاية. ويميل الأطفال الصغار إلى تنميتها عندما يبلغون الشهر الثامن. وعادة ما تكون أولاً مع الأم، وقد تكون مع أي شخص آخر أكثر استجابة لإشاراتهم، ويستطيع أن «يقرأ» أو يفهم ويفسر لغتهم ونداءاتهم ويحقق مطالبهم واحتياجاتهم المتغيرة.

هذه العلاقة (ويسمىها البعض: الصّلة الأولى) لا تعتمد على مقدار الوقت الذي ينقضي معهم أو إلى جوارهم. فالأطفال الصغار الذين يقضون أوقاتاً طويلة مع المربيات أو بالحضانة، يظلون محتفظين بالعلاقة الأوثق والتميزة مع الأم التي تعمل أو تقضي وقتاً طويلاً خارج البيت.

● الثقة بالنفس مستقبلاً:

على العكس مما هو شائع، يرى علماء النفس أن الأطفال الذين تنمو معهم العلاقة الوثيقة بينهم وبين أمهاتهم يكون من السهل عليهم اكتساب الثقة بالنفس في المستقبل والاعتماد على أنفسهم (أي الاستقلالية) عندما يكبرون. والسبب: أنهم يشعرون مبكراً بالأمان. وبالاحصول على عائد يُرضيهم ويشبعهم وذلك مع أول علاقة مباشرة بالناس. وكلما زاد مستوى الأمان والرضا مع تلك العلاقة الأولى، كلما ازدادوا ثقة بأنفسهم في المستقبل.

تقول دكتورة «جيني سوٲكليف» مؤلفة كتاب: «الرابطة الوثيقة مع الطفل» بعد شرح مسهب: «إن الطفل الآمن بعلاقته الوثيقة مع الأم، يصبح متعوداً على توقع الحصول على الأمان والطمأنينة من العلاقات الطيبة، ويعتبرها مصدرأ للهناء والحب. بينما الطفل الذي لا يشعر بعلاقة آمنة طيبة وثيقة مع أمه يصير قلقاً، مضطرباً، هيّاباً، لأنه تعلّم أن الناس ليسوا دائماً محلاً للثقة، لا يؤمن جانبهم. إن الأطفال الذين يكوّنون علاقات وطيدة واثقة مع آبائهم يشعرون بالحماية والأمان، ويميلون إلى أن يصبحوا أقل شكاً وقلقاً. ويترتب على ذلك أنهم يقضون وقتاً أطول من الآخرين في اللعب والاستكشاف واكتساب خبرات ومهارات تميزهم، ويكونون أكثر تقبلاً للأفكار والمعارف والمعلومات الجديدة».

● بناء العلاقة:

إن كل أم - تقريباً - حريصة على توثيق علاقتها الطيبة مع طفلها. ولكن قد لا تأتي في الاتجاه الصحيح أو على نحو ما ينبغي. ربما لأنها لا تدرك أن هذه

الرابطة أو العلاقة المتينة قائمة بالفعل، أو لأنها تشعر بفشلها كأم منذ الأيام الأولى لمولد طفلها.

في رأي د. «ميري دالي» الخبيرة في هذا المجال: «أن كثيراً من الأمهات يشعُرن بالذنب وبالقلق إذا أحسنن بأن خبراتهن لا ترقى إلى مستوى توقعاتهن ورغباتهن. ومع ذلك، غالباً ما تكون توقعاتهن غير متوافقة مع «ما يجب» أن يحدث أو يكون. الشيء المهم ألا تستسلم الأم للإحساس بالذنب أو الفشل. إن كل طفل شخص فريد في ذاته وأحواله، وبالتالي فإن علاقة أمه به هي علاقة فريدة وحيدة لا تتشابه مع غيرها: فاتبعي أيتها الأم غريزتك، عاطفتك الفطرية، وتجاهلي كل ما سبق أن حدّثوك به أو قالوه لك. ولربما كنت في حاجة إلى اجتياز مجال واسع المدى من العواطف والمشاعر والانفعالات، بما فيها أيضاً الإحساس بالتقصير أو الذنب، حتى تستطيعي تنمية وإثراء علاقة وثيقة مع طفلك. إلا أن الواقع يؤكد أن كل أم بطبيعتها متيقظة نشطة سريعة الاستجابة لنداءات طفلها وإشاراته وتستجيب لها. فهي إذن وثيقة الصلة به، أياً كانت خبراتها عند مولده. وكل أم في الغالب الأعم تستجيب وتوثق علاقتها بطفلها بطريقتها الخاصة».

• عندما تنشأ مشكلات:

هناك عوامل، أو دوافع وأسباب، تجعل من العسير على بعض الأمهات والأطفال الصغار (في المرحلة الأولى من العمر) تنمية وتطوير علاقة المحبة والثقة بقوة وثبات. تشير إلى بعضها دكتورة «آن ملك فادين» خبيرة طب الأطفال النفسي بلندن. تقول: «إن الأم الجديدة ربما تكون قد سبق وتعرضت لمصاعب وسوء معاملة أثناء طفولتها هي. وربما يكون لديها إحساس ضعيف بقيمتها ومزاياها وقدراتها، أو بحبها لنفسها. وربما كانت تفتقد «النموذج الداخلي» الذي يمكن أن تطبّقه - أو تحتدّيه - في علاقتها مع طفلها، أو الذي يجعل منها أمّاً فاضلة ناجحة (كأن تفتقد هذا النموذج مثلاً في أBOيها). وربما تكون قد حَمَلت طفلها جنيناً في ظروف صعبة أو سيئة (لمرض أو خلافه) فعانت من

ضغوط نفسية وآلام. وربما كانت هناك مشكلات بسبب الطفل ذاته (أسرية، أو خلقية، أو مرضية، أو متاعب أثناء الولادة...). بعض الأمهات اللاتي فقدن أطفالاً من قبل، يصعب عليهن الاستسلام لعلاقة وثيقة مع طفل جديد تُقلقهن الخشية من فقده...».

● المرض الذي يعقب الولادة

قد يعقب الولادة مرض يصيب الأم (خاصة المرض النفسي) ويستمر فترة ربما تمتد إلى سنة أو نحوها، فيؤثر ذلك على العلاقة بين الأم والطفل. معظم الأمهات يتعرضن لحالات من البكاء والانقباض أو الاكتئاب الخفيف في اليوم الثالث أو الرابع بعد الوضع. لكن ذلك سرعان ما يختفي. ومع ذلك، فإن الإحصاءات تدل على أن نحو ١٠٪ من الأمهات تصيبن حالات من الاكتئاب أخطر من المعتاد، في فترة ما بعد الوضع.

والظواهر التي تفسر ذلك كثيرة، منها: «هبوط» المشاعر أو «المزاج» الشخصي، مشاكل واضطرابات النوم، الإرهاق أو التعب الشديد، إحساس غامر بقصور أو عجز في الكفاءة، أو بالذنب، وأحياناً اضطراب المشاعر نحو الطفل ذاته. وقد تتزايد تلك الظواهر والمشاعر والأحاسيس، وشيئاً فشيئاً تتضاعف سوءاً وخطراً إذا استمرت لعدة شهور بعد ميلاد الطفل.

والأم التي تعاني آلام اكتئاب ما بعد الولادة، قد تشعر في قرارة نفسها بالعزلة والتوقع، وتخشى أن تصارح أحداً بحقيقة مشاعرها مخافة أن يُظن بها أنها أم سيئة أو فاشلة، وربما تعتقد أنها الوحيدة فيما تحس وتُعاني، وأنه لا أحد غيرها يستطيع أن يدرك ما بها ويفهمه جيداً. والمشكلة أيضاً أن الأطباء، وأفراد الأسرة، والأصدقاء، ربما لا يتبينون أنها تعاني من شيء: فوليدها يبدو غالباً في صحة جيدة وترعاه بعناية، كما يبدو أنها تتصرف وتمارس واجباتها بأسلوب «طبيعي» كالمعتاد، لكنها في الواقع تتعذب من مشكلات نفسية وعاطفية من المحتمل جداً أن تؤثر على طفلها وعليها.

إن الآباء - والأمهات خاصة - الذين يشعرون عاطفياً أنهم متباعدون أو منفصلون عن أطفالهم، يكون من العسير عليهم مساعدة هؤلاء الأبناء على الإحساس بالطمأنينة والأمن.. وإذا ما شعرت الأم أنها فشلت، فإن ذلك سوف يؤدي على الأرجح إلى ضعف الثقة في النفس واحترام الذات، وإلى مزيد من التوتر والاكتئاب.

• وما العمل؟؟

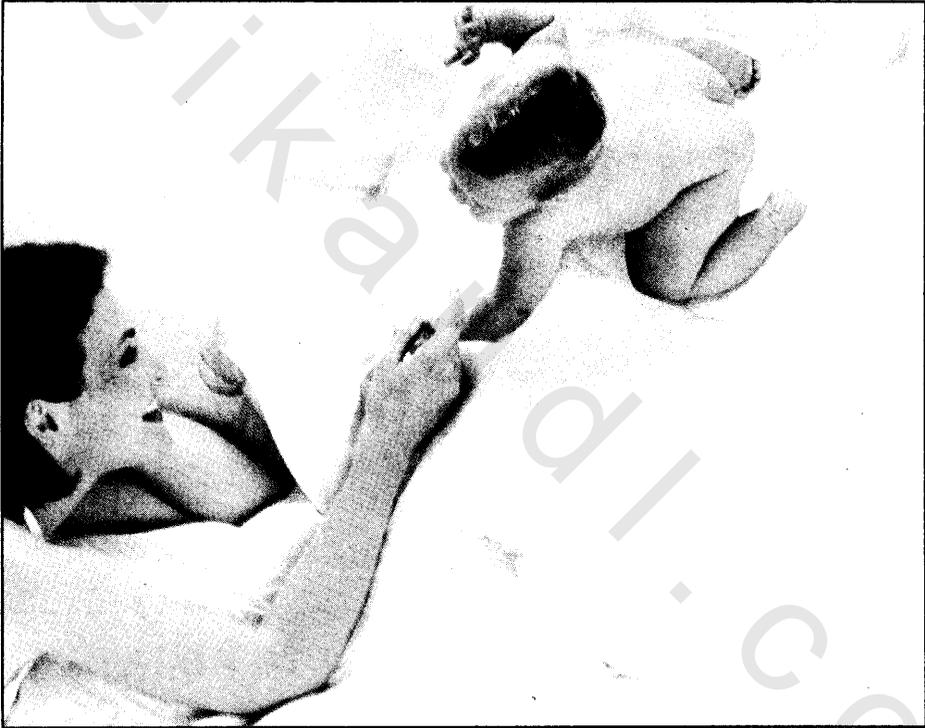
ليست هناك «وصفات» سحرية ناجحة ناجحة لكل الأحوال ومع جميع الأمهات والأطفال. ولكن إذا كانت العلاقة بين الأم وطفلها الصغير عائرة فائتة، فمن الممكن تهيئة «تقارب» أفضل وأقوى باتتاع خطوات بسيطة منها:

* المزيد من الاتصال الجسدي المباشر بين الأم والطفل: تحمله فترات أطول بين ذراعيها، وتمسح بيديها الحانية رأسه وأطرافه وجسمه، وتقربه من صدرها، ليتلمسها، ويحس بأنفاسها ورائحتها (لكل إنسان رائحته المميزة التي لا تتكرر أبداً، وعلاقة الشم بين الأم وطفلها لها أهمية خاصة متبادلة، وقد ثبت من تجربة علمية أن ثمانية من كل عشرة أطفال حديثي الولادة تعرفت عليهم أمهاتهم عن طريق حاسة الشم وحدها بعد وضع غطاء قائم على عيونهن).

* اتصال العين بالعين: أي النظر المباشر إلى عين الطفل، وهو ذو أهمية وتأثير، حتى ولو لم يستجب الطفل لتلك النظرات. حاولي بناء وتكوين هذا الأسلوب في «الحوار» المبدئي (الحديث بالنظرات) أثناء ممارسة الأعمال اليومية. وتخيري لها الأوقات التي يكون فيها طفلك في ذروة نشاطه وتيقظه، مثل وقت تناول الوجبات أو عند الاستحمام. وكلما ازداد «الحوار» على هذا النحو بينك وبين طفلك، كلما قويّت الصلة وتوثقت الروابط ونمت، ولكن يجب أن تضعي في تقديرك أن هذه مجرد إضافات وليست أهدافاً في ذاتها.

* أحياناً قد يكون من الأفضل والأيسر مصارحة المتخصصين في هذا المجال بحقيقة مشاعرك وما يضايقك ويؤلمك. وهؤلاء الأطباء والخبراء

المتخصصون أجدى في الإرشاد والنصح من الأهل والأصدقاء. قد يكون من الصعب عليك أن تبادري بالإفصاح عما في نفسك، ولكن يجب أن تحاولي مرة وأخرى حتى تعثري على من يستطيع بكفاءة وصدق أن يساعدك على حل المشكلة.



معارك من أجل الأطفال

- هل نتركه ينام بمفرده؟
- هل مدرسة الحضانة تفيده؟

التجديد حقاً مفيد. والتحديث يطرد الخبيث. فلنجدد. فلنستحدث. فالقديم عقيم، والتقدم هو المستقبل. وكما قال «أستاذ» جامعي «قديم عتيق» كانت له كلمة صاخبة مسموعة في وسائل الإعلام المصرية أيام كانت مفتحة الأبواب والنوافذ والسقوف، فقط للصخابين الناعقين المنتفعين الحمر (أو أذعياء الاحمرار والمشاركة مع الشعب المطحون المغلوب على أمره، وهم يعيشون في دعة ومُغرقون في النعيم والترف!)، قال في أواخر الستينات الماضية وظل يرددتها حتى هلك في السبعينات: «لو كان الأمر بيدي، لجمعتُ التراث كله ووضعتُه في جِوال ثم ألقيتُ به في البحر»؟! هكذا التدليس وبلا عوض!

وصدّقه غافلون خاملون، وردد هُراءه غوغاءون ماكرون. وكان التجديد والتحديث والتقدم، أن يكون المرء نبتاً «شيطانياً» بلا أصول ولا جذور، أو أن يفاخر - من غير تبصر ولا حياء - بأنه «لقيط» لا أب له ولا خال أو عم، وأن لا حرج عليه أن ينتحل نسباً أو أن يبيع نفسه لقبيلة (أو دولة!) كما كان يفعل الموالي والعبيد والإماء، في سابق العصر والزمان!

ودخلنا - أو بالأحرى أدخلنا - في مسارات التجديد وتيارات التحديث وفيها ألغث وبعض الثمين. ورجونا خيراً ولو بعد حين. وتلك أمثلة: قالوا: الزراعة بالكيمائيات أفضل ومحصولها أوفر ونتائجها أسرع. ثم «اكتشفوا» بعد سنين وعقود أن هذا خطأ.. فادح، بعد أن أصيب الناس بأضرار وأمراض

(بعضها خطير). وتلوث البيئة وفسدت الأرض وضعفت. ضجرت ماشية وأغنام أو هلكت، وأبيدت حشرات وكائنات كانت نافعة واندثرت. وخرج فلاح أمريكي حين تراجع القوم واعترفوا بخطئهم وزيف مستحدثاتهم قال: «أحقاً تريدوننا أن نرجع إلى الأسلوب القديم في الزراعة؟ هل تستطيعون أن «ترجعوا» إلى أربعين سنة قضيتها من عمري في اتباع إرشاداتكم؟!».

واستحدثوا تغذية الحيوان بأعلاف جديدة ومكونات مستحدثة، فأصبحت الأبقار بالجنون، ونقلت إلى الإنسان السموم والهموم فالموت. فأعدموا منها فوراً بالملايين، وكانت الخسائر بالبلايين.

وصنّعوا أفران الليزر، تتقد في لحظة، وتطهو في دقائق، وتوفر في الطاقة. عظيم!.. ثم «اكتشفوا» أن إشعاعاتها مؤذية قاتلة، فجمعوها من الأسواق!

وحتى أحذية الأطفال.. أضافوا إليها ضوءاً وبريقاً، تُثير للساوي في الظلام، وتلمع ملونة في الزحام، ثم «اكتشفوا» أن ما بها من زئبق قد يدمر خلايا المخ، أو يتسرب إلى التربة والمياه، فيزيد التلوث، والإفساد والإهلاك.

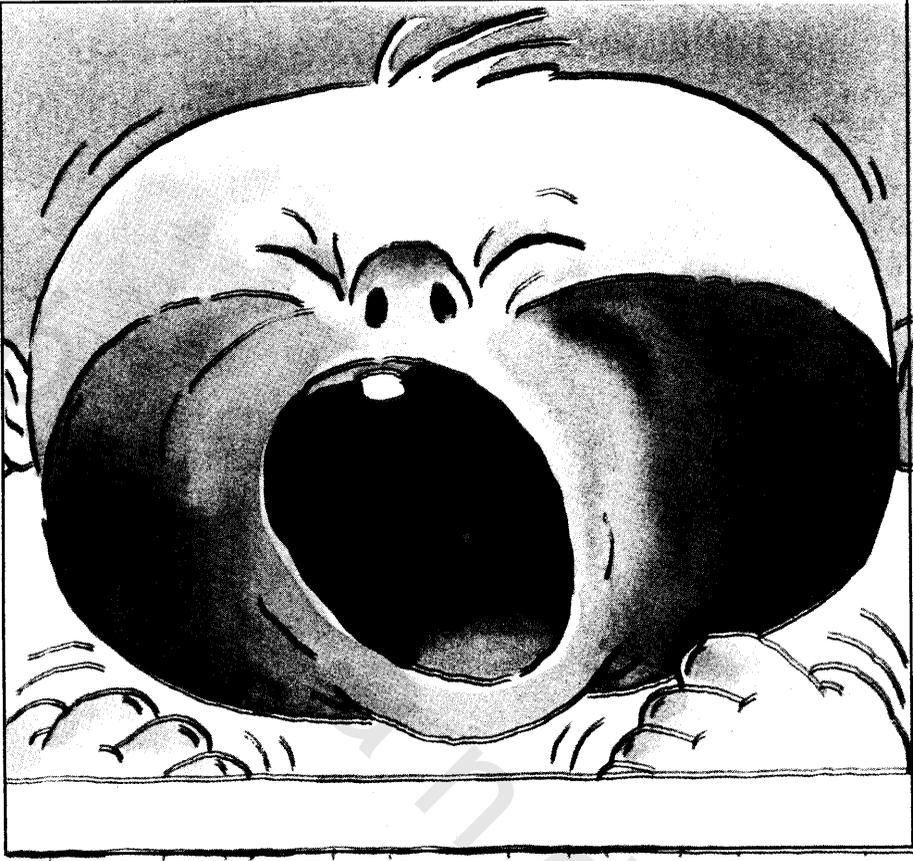
وكثير من الأمثلة في شتى جوانب الحياة، والفكر، والثقافة، والتربية. وفي هذا المجال الأخير - الثقافة والتربية - تجري الآن بحوث ودراسات، ومناظرات ومناقشات، تبلغ أحياناً حد المعارك النظرية والكلامية، في كثير من الدول، بعد أن «اكتشفوا» خطأ بل فساد - بعض النظريات والأساليب التعليمية والتربوية التي استحدثت في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، ونتج عنها ما نرى ونسمع - ونعاني أيضاً - من سلوك وأخلاقيات وشطحات وانحرافات وجرائم وتطرفات... وحتى أحدث شبكات الاتصال العالمية التي كانوا يفاخرون بها في حماسة وزهو - مثل الأنترنت والسينيرسيس - ويؤكدون أنها أسرع وأرفع وسيلة في التثقيف ونقل المعرفة والاتصال، عادوا اليوم يُصيخون السمع إلى أصوات علماء وخبراء ناقدين محذرين، بل إن بعضهم في بلادهم يطالب بإلغائها أو تحجيمها ووضع ضوابط شديدة لها.

ما أكثر النقد واللوم والتقريع والتشريع . . في مجال التعليم والتربية: مدرسة، وإدارة، ومعلمًا، ومنهجًا، وأسلوبًا، وكتابًا، وطفلاً، وطالبًا . . حتى في معظم الدول التي تزعم لنفسها «التقدم» والرقي والسبق. إنهم يطرحون الآن سؤالاً محيرًا: هل يفيد الطفل الصغير الالتحاق مبكرًا في السن بمدرسة الحضانة؟

في إبريل ١٩٩٧، نُشرت أكبر دراسة بحثية تمت في الولايات المتحدة الأمريكية أثارت نتائجها موجة من المناقشات والتساؤلات والجدل، وربما تؤدي بعد حين إلى إعادة النظر في نظم وأساليب التربية «الحديثة»، خاصة وأن أصواتاً غير قليلة في أوروبا وأمريكا تعلو ويتسع صداها مطالبة بإبقاء الطفل في بيت الأسرة فترة أطول وإلى سن أكبر من سن مدرسة الحضانة الحالي. من أهم النتائج التي أسفر عنها البحث: أن أطفال الحضانة المدرسية لا يزيدون شيئاً على الإطلاق - في مستوى النضج واكتساب المعرفة والخبرة والذكاء - عن مستوى الأطفال الذين لم يلتحقوا بمدرسة الحضانة ويعيشون في نفس السن مع أسرهم الهادئة المستقرة، وخاصة مع أم واعية تحسن الرعاية والتربية. في جانب التعلم: الفروق طفيفة في صالح مدرسة الحضانة. أما الجانب الأكثر أهمية والمؤثر مباشرة في النمو - في تلك المرحلة - فهو مستوى الخبرة التي يكتسبها الطفل من الأسرة وهو في البيت.

نظّم الدراسة البحثية «المعهد - الحكومي - القومي لصحة الطفل والنمو الإنساني»^(١) واشتركت فيه أربع عشرة جامعة أمريكية وشملت تسع ولايات، مع ١٣٦٤ طفلاً من سن الولادة إلى ثلاث سنوات، ٢٠٪ منهم يعيشون مع أمهاتهم طوال الوقت لرعايتهم في بيوتهم، والآخرين ملتحقون إما بمدارس الحضانة أو بيوت أسر حاضنة مقابل أجر معلوم. نصف هؤلاء الآخرين تقريباً (الذين خارج بيت الأسرة الأصلية) يقضون ثلاثين ساعة على الأقل كل أسبوع بالحضانة.

(١) U.S. government's National Institute of Child and Human Development



وجد الباحثون أن الأطفال حتى سن الثالثة الملتحقين بمدارس حضانة رفيعة المستوى يتحدث فيها الكبار كثيراً مع الأطفال خاصة المعلمات والمشرفات المقدرات للمسؤولية وبأساليب تربوية، هؤلاء الأطفال يتميزون بقدر ضئيل من التفوق على الأطفال بالحضانة الأقل مستوى. سواء بالمدرسة أو في بيت الأسرة الحاضنة، وذلك في مجال اللغة وتعلم قدرات، ويدخل في تلك القدرات: التعرف على الأشكال، والأحجام، ومعرفة العلاقات بين الأشياء، والتي يسميها بعض خبراء البحث «حجر الأساس في التعلم». كما ظهر أن الأطفال الذين يقضون ساعات طويلة يومياً بالحضانة - خاصة المنخفضة المستوى - أقل تفاعلاً بدرجة طفيفة مع الأمهات البديلات اللاتي هن بدورهن لا

يركّز كثيراً على مفاتيح ودلائل قدرات الطفل ومهاراته. وظهر هذا بوضوح بين الأمهات الحاضنات اللاتي يتحملن ثقل رعاية الأطفال قبل سن ستة شهور.

إلا أن النتيجة النهائية الملفتة للانتباه، هي أن محصلة يوم الحضانه أقل كثيراً في القيمة وفي الأهمية لنمو الطفل عقلياً وعاطفياً بالمقارنة إلى تأثيرهم بنوعية الحياة العائلية. يدخل في ذلك عوامل كثيرة: من دخل الأسرة، إلى لغة الأم وثقافتها وفهمها وقدرتها على التربية، ومدى استيعاب الأطفال العقلي وتشبعهم العاطفي داخل البيت.

واستخلص الباحثون من حساباتهم أن ١٪ من مجموع تلك العوامل هو الفرق الذي يميز أطفال الحضانه عن غيرهم، بينما الخبرات والعلاقات الأسرية المنزلية تتفوق بنسبة ٣٢٪.

وما الدرس المستفاد؟ ما هي «الرسالة» المنبّهة من نتائج تلك الدراسة؟ أن «البيت» - البيت الهاديء الواعي المرّي - هو الأساس والركاز، الذي يحتل المكان الأول، والاهتمام الأعظم بالنسبة لنمو الطفل وإعداده للمستقبل. ثم يستعد الباحثون لمواصلة الدراسة على الأطفال حتى سن السابعة. وفي مجال آخر..

في كل ليلة يتبع آلاف، بل ملايين الأمهات والآباء أسلوباً لا يكاد يتغير: مقاومة رغبة الطفل الصغير في عدم النوم، أو النوم وحده - بمفرده - في فراشه، في حجرته. إنه يبكي. ويبكي. ويستمر لنحو عشرين أو ثلاثين دقيقة قبل أن تعود الأم إليه، إما لشكته، أو تحمله إلى فراشها. فيستغرق في النوم. فتنقله إلى فراشه أو حجرته. وقد يتكرر المشهد أثناء الليل!

نفس الشيء يحدث في الليلة التالية - إلا أن الآباء في تلك الليلة غالباً ما يزيدون خمس دقائق تقريباً قبل الاستجابة لرغبة الطفل. هكذا تمضي الأمور لمدة أسبوع. أسبوعين، وأحياناً شهر. فإذا انتهت هذه المشكلة بسلام. تعود الصغير على النوم بمفرده في هدوء، ونعم الوالدان بسهرة هائلة وادعة.

إنها «مسرحة» من فصل واحد تتكرر كل ليلة في ملايين البيوت، في المدن والقرى من كل بلاد العالم. والسؤال المتوارث بين الأجيال: هل يترك الطفل الصغير يبكي ويصرخ احتجاجاً على النوم المبكر - في تقديره - أو النوم وحيداً في فراشه؟ أم إن الأفضل المبادرة والإسراع إلى إسكاته وإذا لزم الأمر، تأخذه الأم إلى فراشها لينام قليلاً أو كثيراً في فراشها ثم تنقله إلى مكانه بعد ذلك؟ انقسمت آراء «الخبراء» في هذا الشأن. أصحاب الرأي الأول يصرون على أن يترك الطفل يبكي ويحتج كيفما شاء، فالبكاء لدقائق معدودة لا يؤذيه، ولسوف يخلد إلى النوم عاجلاً أو آجلاً. كما يرى هؤلاء الخبراء المعنيون بنوم وتربية الأطفال أن هذا الأسلوب الطفولي في التعبير شيء طبيعي في النمو، وفي محاولة التعود على الثقة بالنفس والاعتماد عليها. د. ريتشارد فزبر - خبير أمريكي مشهور في نوم الأطفال - الذي يتزعم هذا الاتجاه أو الرأي، يصف حالة الطفل الباكية هذه بأنها: «تعلم العلاقات الاجتماعية الجديدة».

جربَ آباء الأخذ برأي د. فزبر، وتركوا الصغار يبكون عند النوم لأكثر من نصف ساعة، وساعة إلا الربع. ثم استسلموا وحملوا صغارهم إلى أسرتههم - الكبار - حتى أخذوا إلى النوم، وذلك رحمة بأطفالهم أو بدافع التخلص من الصخب «ووجع الدماغ»!

إن تعهد الطفل في الشهور والسنوات الأولى ورعايته وتغذيته وتمريضه أمر غريزي طبيعي تؤديه الأم طواعية - ولا تنتظر جزاء ولا شكوراً - وأحياناً تمارسه أثناء الليل وهي لا تدري - من الإرهاق والتعب الشديدين طوال اليوم - أو تؤديه وهي نصف نائمة، في نصف وعيها، وعادة لا يحفل الأب بذلك وغالباً لا يصحو من نومه على بكاء طفله، إلا لكي يسب ويلعن!

أصحاب الرأي الثاني مصممون على أن الأولين (أصحاب الرأي الأول) يحاولون افتراض شيء غير طبيعي، وليس هذا يعني أنه مرذول أو سيء. فالأمر متروك لتقدير الآباء - والأم خاصة - إذا رأوا أن استمرار بكاء الطفل قبيل النوم

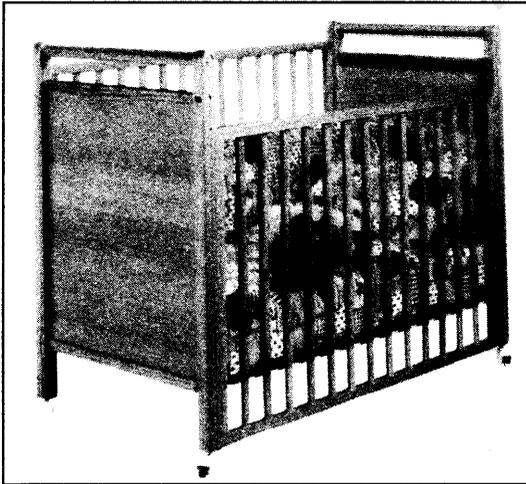


سيضره ويؤذيه، فلا حرج من إسكاته وتهدئته ومحاولة إقناعه بالنوم في فراشه، دون الإصرار على تركه يصرخ ويولول حتى «تنهد» قوته.

في كتابه «حليّ مشاكل

طفلك عند النوم» يوجه د. فزبر كلامه إلى الأم قائلاً: «إن المسألة ليست متروكة لتقدير الآباء، إنها جزء من واجباتهم ومن مسؤوليات الأم. وحتى لو أظهر الطفل الصغير سعادة واطمئناناً بالنوم في فراشه ليلاً، وحتى لو بدا أنه ينام حيثئذ هادئاً مستريحاً، فإنّ هذه العادة على المدى البعيد ستصبح سيئة للطرفين. فالطفل في «حاجة» طبيعية إلى النوم منفرداً في فراشه، كأحد مكونات شخصيته. دعي طفلك يرى نفسه مستقل الشخصية».

فيسأل أصحاب الرأي الآخر في دهشة: «وهل يشعر الطفل الصغير باستقلال الشخصية وهو سجين محاصر بجوانب سرير المهد ذي القضبان الخشبية، عاجز تماماً عن التأثير «بشخصيته المستقلة» على البيئة من حوله؟! وهل الصغار الذين يقضون



نحو أربعين ساعة كل أسبوع في مدارس الحضانه في حاجة إلى قضاء ساعات أطول للتدريب على الاستقلال الذاتي في هذه المرحلة من العمر؟ وهل ظروف كل الأطفال في المتغيرات التي تسبب اختلافات الناس لكي تخضعهم لرأي معين أو

أسلوب واحد في التربية؟... إنه حقاً أمر خطير، خاصة ونحن لا نملك الإحصاءات المقارنة، ولا النتائج الواضحة المعالم».

ثم يضيف هؤلاء:

إن فربر يزعم أن الطفل الصغير إذا تُرك على سجيته ينام في فراش الأم والأب، ويصر على ذلك، فإنه يميل مستقبلاً إلى أن يكون ذا شخصية استبدادية مزهواً متعالياً مغالياً في قدراته وقوته وسيطرته. هذا الزعم قد يكون صحيحاً، وقد لا يكون. ولكن الطفل في شهوره وسنواته الأولى هو بالفعل ذو قدرة في البيت وسيطرة، على نحو ما. وعندما يصحو الطفل باكياً في الليل وهو في فراشه، وترفض الأم أن تلبّي رغبته في حمله إلى فراشها، فإنه يتضايق، يغضب، يحتج، ولكنه سيفهم جيداً حقيقة الوضع.. أو الموقف».

يقول أصحاب الرأي الأول: «إن السماح للطفل الصغير الباكي بالنوم في سرير الأم بدلاً من سريره لا يحل مشكلة. فلربما كان هناك سبب يدفعه إلى البكاء إذا لم يتوقف ويهدأ بعد فترة».

نعم. يرد الآخرون. ولماذا لا يكون السبب هو الخوف، مجرد الخوف. إن الرعب الليلي إذا لازم الطفل الصغير لمدة أسبوع متواصل أو أكثر قليلاً، فسوف يستمر معه طوال عمره. وقد يكون ببساطة حاجته إلى غذاء طبيعي من لبن الأم، الذي يصفه بعض الخبراء بأنه «مشيمة إضافية»^(١) للطفل، فهو يحتوي على هورمونات مقدرة بعناية فائقة وإحكام معجز تساعد على نموه، وتدعم - كما ظهر من دراسة علمية بحثية مؤخراً - وتقوي مستوى ذكائه.

إن معظم رضاعة الطفل من الأم يتم نهاراً. ثم تأتي فترة الليل، وقد يمتد نومه فيها إلى إحدى عشرة ساعة أو أكثر، فتقطع دورة التغذية لفترة طويلة، ولا أحد يدري حتى الآن بالقطع ما إذا كان هذا الانقطاع الطويل يسبب ضرراً أم لا.

(١) المشيمة: الغشاء - أو الكيس - الذي يعيش وينمو الجنين داخله في بطن الأم ويحفظه من الأذى والجراثيم.

لكن المعروف جيداً أن مثل هذه الفترة الطويلة في دورة تغذية المولود حتى سن الشهر الخامس ليست في صالحه تماماً في الحالة الطبيعية. ويكون لبن الأم فيها عادة خفيفاً كثير الماء، على نمط لبن الرضاعة عند الثدييات التي ترضع صغارها مرات كثيرة متوالية في اليوم. فإرضاع الطفل ليلاً إذن لا ضرر منه، بل على العكس غالباً ما يفيد. بينما يرى د. فربر - مع الجانب الآخر - أن إرضاع الطفل ليلاً بعد الشهر الثالث من مولده يسبب له مشاكل في النوم.

وفي الحق، تضاربت آراء الأطباء في إرضاع الطفل وتغذيته فبينما كانوا ينصحون - ويزينون - منذ عشرات السنين بأن الأم لا تُرضع طفلها أكثر من مرة واحدة كل أربع ساعات، إذا بهم يعترفون اليوم بأن هذا الرأي أو تلك النصيحة كانت خاطئة. وفي فترة نصحوا وحسّنوا استخدام زجاجة الرضاعة، والآن يعترفون بأن هذا خطأ بل ويحذرون من استخدامها (الرضاعة الصناعية) ويفيضون في شرح أخطارها. وفي سنوات ماضية نصحوا وأسرفوا في إغراء الأم بالتخفيف من وزنها أثناء شهور الحمل (حتى أن بعضهن لجأن إلى التدخين لتحقيق ذلك). والآن يعترفون بأنها كانت نصيحة كاذبة خاطئة . .



وفي النهاية.. ما الخلاصة؟ ما النتيجة؟ هل يترك الصغير يبكي ويعوي حتى «ينهّد» فيسكت وينام منفرداً بفراشه، أم تتراجع الأم - والأب بالتالي - وترضخ لرغبته في النوم بجوارها؟.. ما زال النقاش مستمراً والجدل متصاعداً.. تماماً مثلما تعلو الأصوات الغالبة الصاخبة - شرقاً وغرباً - مطالبة بأساليب جديدة في التربية، وفي التعليم، وفي التعامل مع الأطفال والشباب. أساليب أكثر صحة، وسلامة، وصلاحاً، ونبهاً لهم، ولأسرهم، ولمجتمعاتهم وأوطانهم (وامتد ذلك إلى مناقشات صريحة حول المفاهيم عن «الأسرة» ذاتها)، بعد الأخطاء - بل الكوارث - التي شهدتها أجيال الخمسينات والستينات والسبعينات الماضية، وما زالت آثارها السيئة تتراكم حتى اليوم، وتزداد..!